

العرب والترك *

١

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)

التفاير بين الاخوة الاشقاء ، والتنافس بين الجيران والمخلطاء ، هما من الاخلاق الممهودة بين الناس ، في جميع الشعوب والاجناس ، وكثيرا ما يفضي التفاير الى التنافر ، والتنافس الى التحاسد ، فاذا اقترن ذلك بالتقاطع والتدابير ، ولم يفض كل من المتنافسين بما في نفسه الى الآخر ، اشتعلت بينهما نار العداوة والبغضاء ، وان كان الخير لكل منهما في الموادة والوفاء ، وان ما يقع من الشقاق بين البشر بسوء الفهم ، اكثر مما يقع بسوء النية والقصد

تلك قوانين الاخلاق وسنن الاجتماع التي تسير عليها الافراد والاقوام ، فالعرب والترك هما الصنوان في شجرة الملة الخنيفة ، والاخوان الشقيقان في الجامعة العثمانية ، والركنان الركينان لبناء الخلافة الاسلامية ، فالرابطة بينهما جديرة بأن تبقي دائما كما وصفها كمال بك نامق زعيم النهضة الادبية في الترك بقوله : « ان كان يطعم أحد في حلها فهو الشيطان » وان كان يهدر عليه احد فهو الله »

هذا ما كان ، وهذا ما يجب ان يكون الى ماشاء الله ، ولكن وجد شيطانان لاشيطان واحد يطعمان في حل الرابطة المتينة بين العنصرين اللذين امتزجا كامتزاج الاكسجين والادروجين في تكون الماء ، أو الاكسجين والنيتروجين في تكون الهواء ، واذك الشيطانان هما شيطان السياسة الاوردية ، وشيطان الجهل في كثير من افراد

* مقال طويل كتبناه في الاستانة ونشر نبذا متفرقة مترجما بالتركية في جريدة « اقدام » الشهيرة وبالمرية في جريدة « كلمة الحق »

الغصيرين ، ولكل واحد من هذين الشيطانين شر من شيطان الجن الذي ذكره
كمال بك رحمه الله ، وسأين ذلك تبينا

ان هذا العاجز كاتب هذا المقال ربما كان من أعلم الناس بهوادم هذه المسألة
وخوافها وهزلها وجدها لا تي جئت مصر منذ اثني عشرة سنة فكنت اشتغل فيها
بالدعوة الى الاصلاح الاسلامي جهراً ، من حيث اشتغل بالسياسة العثمانية سرأ ،
وان مصر في هذا العصر ، هي مرآة الشرق والغرب ، بما فيها من الحرية المطلقة ،
والشعوب المختلفة ، والجرائد الحرة ، والاجتماعات المباحة ، فالقيم فيها يسهل عليه ان
يعرف من احوال البلاد العثمانية وسياسة الدول فيها ما لا يعرفه أهل الاستانة ولا غيرهم
من المقيمين في الولايات حتى في هذا العصر عصر الدستور ، فاذا تقول في عصر
الاستبداد القريب : عصر الحجر على المطبوعات وانظم على الافواه ، والمنع من الاجتماع ،
والرعب من ذكر بعض الاسماء والالقباب ، والمقاب الشديد على فئات اللسان ،
وزلات الاقلام ؟؟

انني مارتكت مصر وجئت الاستانة في هذا الوقت لأمتع النفس باستنشاق
هوائها وعدوبة مأثها ومناظر بوسفورها ، وانما جئت باحثاً ومختبراً أو ساعياً في
الاصلاح ، فأنا أعرض ما عندي من المعرفة والاختبار والرأي ، على اولي الامر وأهل
الحل والعقد ، بمضه بالمشافهة والمسارة ، وبمضه بالكتابة في الجرائد ، فان صادف
أذانا واعية ، واعينا بصيرة متأملة ، فذلك ما أرجوه ، وان صدق ما قيل لي بمصر من ان
أولي الامر وكذا أصحاب الصحف في الاستانة لا يبالون بقول أحد ولا برأيه - وما
أظن ان الامر كما قيل - فحسبي اني أدبت الواجب عليّ وعملت بالنصيحة الواجبة
لائحة المسلمين وعامتهم كما ثبت في الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم
في صحيحهما

قضيت أكثر من اسبوع في هذه العاصمة لأقابل أحدا من أولي الامر ولا
من أصحاب الجرائد وانما كان هي فيها محصورا في اكتشاف الآراء ، واستخراج
مخبات النفوس ، ومكونات الصدور ، في الامور العامة ، ومسألة سوء التفاهم بين
الترك والعرب خاصة ، فرأيتني بعد ان وقفت على كثير من المسائل والآراء ، وما

فبها من الأغراض والأهواء ، لم أزد علماً بأصل المسألة وإنما أضفت إلى ما عندي جزئيات جديدة من الحوادث والوقائع تؤيد الأمر الكلي ولا تنقض منه شيئاً فالأمر الذي يجب التصريح به بالأجمال ، قبل بيان الأسباب والتأثير بالتفصيل والذي يجب أن يعلم وأن يعمل به هو أنه يوجد شيء من سوء التفاهم بين المنصرين تخشى عاقبته أن لم يتدارك في الحال ، وأن كبار الدولة وقادة الأفكار في العاصمة ليسوا على بينة منه وأسئله على ذلك شهيدين قريين : أحدهما فتنة الشام في هذا العام ، وثانيهما ما نشر في جريدة «أقدام» من خبر اتحاد أمراء جزيرة العرب لأجل تكوين دولة عربية 1

أما الأول الذي استدل به على أن حكومة العاصمة ليست على بينة من أحوال الولايات العربية فهوان بعض الوشاة في دمشق الشام بلغوا هذه الحكومة بتقرير من تقاريرهم التي اعتادوها في زمن الحكومة الحميدية بأن أفراداً معينين يكونون دولة عربية وخلافة جديدة ، افبادرت الحكومة الدستورية إلى التحقيق واستنطاق المتهمين بهذه الجنابة جهراً ، وكانت الحكومة الحميدية تفعل ذلك في شأنهم وشأن أمثالهم سرا ، وهم أفضل علماء الشام وأخلص الخاصين من أحرارها للحكومة الدستورية ، هم الذين كانوا مضطهدين في الدور الماضي فلما جاء الدستور ظنوا أن زمن اضطهادهم قد مضى وجاء الزمن الذي ينفع فيه الصادقين صدقهم ، ويعرف فيه المخلصين إخلاصهم ، وكانوا هم السابقين ، إلى مقاومة الرجعيين ، أما ينزل نصائحهم وعلمهم كالشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال الدين القاسمي ، وإما ينزل أمثالهم ونفوذهم كعبد الرحمن بك اليوسف ، والسبب في وقوع هذا الغلط عدم الوقوف على حقيقة الأحوال ودليل ذلك أن ناظر الداخلية لم يلبث أن أصدر أمراً حين علم بالحقيقة من مدة قريبة بتürk التحقيق عن المتهمين بالباطل وجعل المسألة كأن لم تكن شيئاً مذكوراً ، ولكن تلك الإهانة التي أصابت أولئك المخلصين بسبب ما ذكرنا من عذر الحكومة قد تنسب إلى سوء القصد ، أو ضعف الثقة بالحكومة الدستورية — لو لم تتداركها — وسنبعث في طريق معرفة الحكومة والجرائد في العاصمة لأحوال الولايات في نبذة أخرى من هذا المقال وأما الأمر الثاني وهو ما استدل به على عدم معرفة الجرائد وقراءتها بأحوال

البلاد العربية فهو تصديق ما نشرته جريدة « اقدم » مترجما عن جريدة « الاتحاد الألماني » من اتحاد امراء العرب وشيوخهم في الجزيرة واهتمام الناس هنا بذلك: وهذا ما حدثني على زيارة هذه الجريدة ومكاشفة مديرها الفاضل بحقيقة الامر في ذلك الخبر والاتفاق معه على كتابة مقال في بيان ما عندي من الصواب في هذه المسألة وفي المسألة الكبرى التي تعد هذه فرعاً من فروعها وهي مسألة سوء التفاهم بين العرب والترك وما يجب من طرق تلافيه بعد معرفة أسبابه ، وقد شكرت للصحيف الكريم قبوله مني ما اكتب وترجمته ونشره في جريدته

لمسألة اتفاق امراء الجزيرة أصل عريق من اوثق المصادر واصحابها وهو ان شيخ لحج (ويلقب هناك بسطان لحج) قد كتب كتاباً الى بعض امراء العرب وشيوخهم كامام الزيدية في اليمن والشريف أمير مكة في الحجاز وغيرها وأرسله مع رسول من قبله يحملون بعض الهدايا وهي تتضمن الدعوة الى المذاكرة في الاتفاق على حفظ جزيرة العرب من العبث باستقلالها ولولم قبل الدولة العلية ، ولكن لم يجبه أحد الى دعوته ولا حصل اتفاق بين اولئك الامراء ولا اتفاق على الاتحاد ، ولا ذلك من التيسر ولا شيخ لحج ممن يسم له اولئك الامراء قولاً ، أو يحترمون له رأياً، أو يعتقدون فيه اخلاصاً ، بل هم يسيئون الظن فيه لما بينه وبين انكسار من الولا ، وما يأخذ منها من العطاء ، علمت بهذه المسألة من عدة اشهر ولم أنشرها في « المنار » ولا في غيره من الصحف لاعتقادي أنها لا ضرر فيها وإنما الضرر في نشرها ، وخوض العامة بذكرها ، لما سألته بعد : ولكن لما كان علم الدولة بها واجبا ولا سيما ان كانت بدسية اجنبية بادرت الى اخبار بعض من يثق بي من كبراء الدولة بها في كتاب ارسلته اليه من مصر على انه بلغني ان امير مكة المكرمة اخبر حكومة العاصمة بها ايضا

بعد ذلك سمع بعض التجار في عدن وغيرها بالخبر ولكن على غير وجهه فتناقلوه حتى وصل الى طرابلس الشام فلقنه مكاتب جريدة « المؤيد » المصرية هناك وكبره واطاف اليه ماجرت عادة مكاتب الجرائد بالتوسع في مثله وأرسله الى المؤيد ، وبعد ان نشره المؤيد بزمن غير طويل نشرته جريدة « الاتحاد الألماني » فوصل الى الاستانة العلية في هذه الايام وكان له من سوء التأثير ما كان ويحمد الله

ان كانت الحكومة هنا اعرف بحقيقة هذا الامر من الجرائد اذ لولا ذلك لخشي ان
تخسر الزخوف ، وتنفق الالوف وتسير الاسطول ، لدرء هذا الخطر الموهوم ، فان
اتفاق اولئك الامراء لايتلافى بمثل مايتلافى به اتفاق الشيخ عبد الرزاق البيطار
والشيخ جمال القاسمي وهما شيخان ضعيفان يقمان في مركز فيلق من فيالق الدولة العلية !!
أكتفي بهذه النبذة اليوم وسأكشف الغطاء في النبذة الثانية عن اسباب سوء
اتفاهم واجعل هذا وذلك مقدمة لما أدعو اليه من الوحدة والاتفاق

٢

قلت ان العرب والترك يجب أن يكونا متحدين كالعنصرين المكونين للماء
او الهوا بحيث يكون الناظرون اليهما كالناظرين الى الماء يرون شيئاً واحداً لا شيئين ،
والشاعرون بمقاومتهم كالشاعرين بمقاومة الهوا وهو قوة واحدة لا قوتان منفصلتان ،
وقلت ان شيطاني السياسة الاجنبية والجهالة الداخلية ، يطعمان في حل رابطتهما
القوية ، وتحليل وحدتهما الدينية الاجتماعية ، بحلل العصبية الجنسية ، وانا نيين
ذلك بشيء من التفصيل

سياسة أوروبا في الاجناس

وضعت في أوروبا قاعدة من قواعد السياسة من عهد نابليون وهي وجوب
استقلال كل جنس بنفسه ، فهذه القاعدة يعمل بها رجال السياسة الاستعمارية حيث
توافق مصحتها فقط ، ويوجد من رجال الاجتماع من يقول بوجوب اطرادها
لمصلحة البشر وان كان استقلال بعض الاجناس ينافي مصلحة جنس آخر سائد
عليه او متعزز به

لهذه القاعدة فروع كثيرة تتماق بالدولة العملية لا خير لها في شيء منها لانها مؤلفة
من اجناس كثيرة لا قوة للدولة الا بانحادها كلها او جلها بالاخلاص فان شذ منها
جنس صغير هو فيها كالكربون في الهوا لم يكن ذلك ضاراً لها ضرراً يضعف
كياتها فان خوّ الهوا من الكربون لا يمتل كونه هواً وإن كان لا يخلو في الغالب
منه ، واتي لا أبحث هنا في هذه الفروع وإنما اقول انه لا يفهم احد من الاجناس

العثمانية في سياسة الجنسية كما يغبى الترك العثمانيون لأن من مقتضاها أن يمحصر استقلالهم في بلاد الأناضول التي هم فيها أكثر عددا ولا تسمح لهم أوروبا بالاتحاد بأهل تركستان ولا هم يقدرون على ذلك بالقوة ، فاتهام بعض العرب وغيرهم لسياسة الترك بأنهم يريدون استخدام قوة الدولة لتميز جنسهم على سائر الأجناس العثمانية هو اتهام لم بالجهد بمصلحة الدولة وبمنفعة جنسهم فوق الجهد بما يحظره عليهم دينهم من عصبية الجنسية

سياسة أوروبا الجنسية في البلاد العربية

قلت ان القائلين بهذه السياسة في أوروبا فرقان : رجال الاستعمار الذين يستخدمونها لمصلحتهم بقدر مصلحتهم ، ورجال الاجتماع الذين يسمون لها سعيها على الاطلاق عمالجا يعتقدون من خير البشر . فالاولون يثبون في البلاد العربية العثمانية فكرة الاستقلال العربي مخادعة للعرب ليساعدوهم على الانفصال من جسم الدولة العلية ، وماذا تريد أوروبا بعد ذلك ؟ تريد أن تضع هذه البلاد العربية تحت حمايتها أو تضمها الى مستعمراتها وتقطع عليها طريق الاستقلال باسم الاستقلال !! وان لاوروبا من الدسائس والوساوس في اطماع البلاد العربية العثمانية بالاستقلال مالا تسمح لنا الحالة السياسية في الاساتنة الآن بشرحه وانما اشرنا اليه لنذكر اهل الحل والعقد ورجال الصحافة في هذه العاصمة بأن سوء الادارة في عصر الاستبداد كان هو المساعد لترويج تلك الدسائس ، وان حسن الادارة وحده لا يكفي في هذا العصر لقطع عرق الدسائس وخيبة مساعي اصحابها بل يجب أن يهتزن بالمساواة وتأييد الوحدة العثمانية بالعمل من الحكومة وبقوال الجرائد وفي مقدمتها جرائد العاصمة فان كلمة واحدة من جريدة تركية او من كاتب تركي تشعر بتفضيل الترك على غيرهم تحبط عمل الف واحد من العرب في الدعوة إلى الاتفاق والاتحاد

قد اشتهر امر المناظرة الطويلة التي دارت بين هذا العاجز وبين صاحب جريدة (وطن) التي تصدر في مدينة لاهور بالهند في الانقلاب العثماني الذي سميته ميمونا وسماء مناظري مشوئا ، وقد كان مما قاله في رده الأخير على ابي لم أعترف لعبد الحميد بحسنة واحدة وقد كانت جرائد الشرق والغرب طافحة بتعداد حسناته الكثيرة ،

فأجبت في ردي الأخير عليه الذي نشرته في جزء المار الذي صدر في آخر رمضان الماضي : اني اعترف لبدالحمد بمحبتين سكة الحديد الحجازية ، وطمع التصيب للبنسية ، انلم يكن يقال في زمنه ترك وعرب . وأزيد الآن على ما قلته هناك انه لو كانت تلك الادارة السوسى مقرونة بالتصيب البنسي للترك لانفصلت البلاد العربية من جسم الدولة ألبنة

هذا : وان في أوروبا من أهل السياسة من يساعد على فصل بلاد العرب من جسم الدولة العلية لأجل اضعاف الدولة لا لطمع في شيء من تلك البلاد ، وانني قد دعيت منذ احوام الى الدخول في جمعية اورية جمعية باوربا تدعو الى استقلال البلاد العربية وقيل لي ان جمعية كذا وجمعية كذا من الجمعيات التي تريد اضعاف الترك في مقدونية وفي الاناضول وحملهم على تفريق القوة العسكرية ، تساعد هذه الجمعية العربية بالمال الكثير اذا دخل فيها بعض المشهورين من المسلمين ، ولما رفضت هذه الدعوة قيل لي اسمح لنا بكتابة شيء في ذلك بقلبك او اسمح لنا أن نستخدم اسمك فلم اقبل بل كان ذلك مما قوي عزمي على القيام مع بعض اصدقائي العثمانيين بمصر بجمعية الشورى العثمانية التي ألفتها من جميع العناصر العثمانية للخطابة بالدمستور والاصلاح

واما رجال الاجتماع من الاوربيين الذين يميلون الى تكوين دولة عربية فكثيرون ، ومنهم المخلصون الذين لا يقصدون مساعدة الطامعين في البلاد العربية ولا اضعاف الشعب التركي ، وقد يستغرب كثير من القارئ لهذا المقال الجزم بوجود هذا الصنف من الناس في أوروبا ، ألا فليعلم المستغربون اننا نقول هذا عن علم لاعن ظن وان الانسان ما زال مصدر الغرائب . وما وقفت عليه من ذلك ان بعض هؤلاء المخلصين في حب العرب قد عرف الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده رحمه الله) ووثق باقتداره فرغب اليه أن يضم له نظاما لاستقلال جزيرة العرب وتكوين دولة عربية فيها ليسعى في تنفيذ ذلك . وقال له انه يوجد مال كثير يندل في سبيل المشروع وانه هو ينفق من صندوقه مبلغ كذا من الوف الجنيهات . فأقنعه الاستاذ الامام بأن فصل العرب من الترك يصعب الفريقيين ويضر الاسلام نفسه ،

فقال له ذلك الأوربي الفاضل إذا كان الأمر كذلك فانا أعاهدك على ترك السعي له إن ما ظهره العلماء المستشرقون من آثار العرب في العلم والمدنية والدين وما يظفرونه في كتبهم التي كانت نسجت عليها عاكب النسيان، هو مما يقوي ميل أولئك الاجتماعيين إلى مساعدة الاستقلال العربي إذا سمعت العرب إليه وطالبت به، فأحب أن يعرف ذلك رجال السياسة والصحافة من الترك وأن يعلموا علم اليقين انه لم يوجد إلى هذا اليوم سعي إلى هذه التفرقة الضارة ولا ميل من أهل البلاد العربية، وأن العارفين منهم بهذه المناقذ يسعون في سدها، وأن الذين أظروا الدعوة إليها في أوروبا إنما هم أفراد من اصحاب المطامع الذين كانوا يبتغون المال والمناصب من عبد الحميد والتهويش على الدستور ورجاله في أول العهد بإعلانه، وأن عزت العابد لا يقدر الآن على شيء، وأن كل ما يجب الآن محصور في ازالة سوء التفاهم بين العنصرين وهو ما سنبينه بعد

٣

إذا جنحت الترك للاعتصام والامتزاج بالعرب بما ساذكره من الوسائل فإن العرب تكون أجنح لذلك لان الترك هم العنصر الأكبر في الدولة والسياسة، والقاعدة الطبيعية في الجاذبية ان الأكبر يجذب الأصغر، ولأنهم أشد استمساكا بالجنسية فيبتغون ان يكونوا هم الذين يكونون عصبية العرب الجنية

فإن قيل ان العرب هم أكبر العنصرين بكثرة عددهم وسعة أراضهم وموارد ثروتهم فهم الذين يجب ان يجذبوا الترك اليهم، فالجواب ان هذا كان يكون صحيحا لو كان التنازع والتجاذب بين عامة العنصرين ومحمد الله انه لم يكن كذلك لان هذه العصبية اذا سرت في نفوس العامة فتنبهوا لها، وتوجهوا إلى الصلح بموجبها، فإنه يتصر أو يتعذر نزعهما من قلوبهم، واستخراجها من أدمغتهم، وإنما التنازع والتجاذب محصوران في طائفة من المتعلمين وهم رجال المناصب في الدولة وطلابها، والمستقلون بالسياسة، كأصحاب الجرائد وكتابها، ومجموع الفريقين في الترك أكثر منهم في العرب وهو معنى قولنا ان الترك أكبر العنصرين في الدولة والسياسة، وإن انحصار التجاذب بين اعقل المتعلمين في الفريقين هو الذي يطمع طلاب الوفاق ومحبي الاصلاح في

ازالة سوء التفاهم الذي يعري كل فريق بيث سموم التفريق في عامة الناطقين بلقته
وأما كون الترك اشد استمساكا بعصبية الجنس من العرب فسببه ان دولتهم
قامت بهذه العصبية لا بالدين الذي يجمع بين الاجناس الكثيرة ويساوي بينهم كسولة
العرب أو دولهم ولا تظليل في بيان هذا لانه لا يقوي ما رمي اليه من التآليف والتوحيد بل
ربما يعارضه، وحسبهم ان دولتهم سميت باسم جنسهم (تركيا) وكان مما زادهم استمساكا
بعصبيتهم الجنسية كثرة الاجناس المزاحمة لهم في عاصمة الملك وما يتصل بها من البلاد .
نعم انهم على قيامهم بعصبية الجنس لم يكرهوا الاجناس التي استولوا على بلادها
على التجلس بجنسيتهم ولا على الدخول في دينهم ، أما الاول فلان دولتهم لم تكن
دولة علم وحكمة، وانما كانت دولة بأس وقوة ، وقد مرت عليها القرون ولم تجمل للغة
التركية محمولا صرفا ولا معاجم ولا غير ذلك من كتب التعليم . وأما الثاني فلان الإسلام
نفسه هو الذي لم يسمح لهم بذلك وقد أراد به بعض سلاطينهم واستقى فيه مفته شيخ
الإسلام ، فلم يفتيه فامتنع لانه كان مسلما ودولته اسلامية لاشبهة في ذلك .
ما كنت لألم بهذا الاستطراد لولا ما خشيت من الاعتراض على بعض المقدمات
الذي يترتب عليه عدم التسليم بالنتيجة . واذا سلطنا ان الاستمساك بالجنسية فيهم
أشد ، وانهم أقوى على جذب غيرهم اليهم وأقدر ، فلا مندوحة لنا عن التسليم بأن
الخوف من الفرق والرجاء في الاعتصام هما منهم وفيهم أشد وأقوى أيضا . واني
لأرجح الرجاء على الخوف لحسن ظني بكبراء القوم وزعمائهم الذي لا يتقضه وقوع
بعض الاغلاط منهم ، التي تولد منها ما تولد من سوء الفهم ، الذي يسهل تداركه مع
حسن القصد ، وقد رأيت بوادر الارتياح الى التدارك من فخامة الصدر الاعظم فمن
دونه من رجالهم الذين اتفق لي الحديث معهم ، بل رأيت الكثيرين من فضلهم
قد اقبلوا بعد نشر النبذة الاولى من هذا المقال في جريدة (اقدم) للإسلام على التعرف
بي والشكري والاعتراف بحسن ما دعوت اليه من وجوب الاتحاد والاعتصام .
وكذلك فعل الكثيرون من وجلاء العرب المقيمين في هذه العاصمة . افليس هذا
دليلا على صدق ما جزمنا به من كون المسألة التي نبحت فيها مسألة سوء فهم يسهل
تداركها قبل اتساع دائرتها ، بل « ومتى وضحت الأسباب ، زال الارتياح » .

تاريخ النظائر بين العرب والترك

ان الطيب لا يحسن مطالحة المر بوض ويكون جديرا بالنجاح فيها الا اذا كان عارفا بتاريخه الصحي وبماطرأعليه من الامراض من قبل ، بل يجب ان يكون مع ذلك على علم بالخال الصحية في آباءه وعشيرته ليعرف استعداد مزاجه وما عسى ان يكون قد سرى اليه بالوراثة ، وكذلك يجب ان يعرف الطيب الاجتماعي تاريخ الامم والشعوب التي يتصدى لارشادها ومعالجة امراضها الاجتماعية ، واخلاقها وعاداتها الطارئة والموروثة ، وهذا ما يدعوننا الى الاشارة الى الابد من التذكير به من تاريخ النظائر بين هذين العنصرين اللذين يجب ان يتحدا دائما كتحاد عنصرى الهواء أو الماء كان للعرب مدنات قديمه قد امتدت من بلادهم الى بلاد الكلدان والفرس من جهة الشرق والى مصر من جهة الغرب فتاريخ دوله الرعاة العربية في مصر معروف ويقول بعض المؤرخين انه كان لهم في تلك البلاد دولة اقدم منها وشريعة حمورابي وهي اقدم الشرائع المعروفة من التاريخ شريعة عربية ، فحمورابي العربي كان يدعى ملك السلام كما في العهد العتيق والمهد الجديد من اسفار أهل الكتاب وكان معاصرا لابراهيم الخليل عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، الا ان تلك المدنات قد زالت كما زال غيرها من المدنات القديمة — ولم يظهر شيء من آثارها الا في هذا العصر الذي غني فيه الاوربيون باستخراج الآثار القديمة من بطن الارض ، وسيجار بهم العثمانيون في ذلك وهم أحق بمعرفة تاريخ البلاد التي ورثوها ويوجب عليهم الدستور في هذا العصر عمارتها كما أوجب الاستبداد على سلفهم اهمالها ان لم يقل تخريبها

ثم اتى على العرب حين من الدهر لم يكونوا فيه شيئا من كورا في عالم المدنية حتى انبلج فيهم فجر الاسلام بمكة المكرمة وطلمت شمسه بالمدينة المنورة ثم امتد نوره الى سائر الآفاق ، واتسمت فتوحاته في الشرق والغرب ، واحيا الموم التي كانت قد ماتت ، وجدد المدنية التي كانت قد عفت وطلمت ، ولكن كان من تعاليمه نحو المصيبة الجنسية ، ولذلك كانت الدواوين التي دونها الخليفة الثاني للحكومة في بلاد الشام باللهمة الرومية الى عهد عبد الملك بن مروان ، وكان وزراء اعظم الخلفاء العباسيين

من الفرس ، وحاشية آخرين منهم وحرسهم وجندهم انخاص الممتاز من الترك . ثم حدثت في بلاد الخليفة العباسي سلاطين الطوائف فكان منهم الفارسي والتركى والكردي ، ولم يخطر في بال العرب ان هؤلاء غرباء عنهم ، وانه يجب تأليف عصبية عربية لئلا يزعج الملك منهم ، ذلك بأن الاسلام نزع عصبية الجنس من قلوبهم بقول الله لهم في سورة الحجرات «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » فعلمهم ان الشعوب التي تختلف باختلاف الجنسية والقبائل المتفرقة باختلاف النسب يجب ان تتعارف فتألف ، لا ان تتناكر فتختلف ، وبذلك أوصاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع وصرح بأنه لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي الا بالتقوى ، ولذلك كانت العرب ولا تزال تفضل مثل ملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الأيوبي الكردي على أكثر ملوك بني أمية . ولذا سهل على ملوك آل عثمان الاستيلاء على البلاد العربية ولم يخطر على بال الامة العربية أنه قد استولى عليها قوم ليسوا من جنسها ، اذ ليس لها ومعتظما على الاسلام جنسية في غير دينها ، ألم تر الى الشعب المصري العربي كيف يتن من نفوذ الانكليز وهم ليسوا بالكين ، ويحن الى الترك وان كانوا الى آخر عهد عبد الحميد من الظالمين ، ومن الامور التي لا ينكرها مصري ولا تركي ان الانكليز قد اصلحوا من بعض الوجوه في مصر ، ان الترك لم يصلحوا فيها شيئا ، ولا يزيد على ذلك لئلا يخرج الى ما ليس من غرضنا أو الى ما يوشك ان يصف صوتنا فيه

يقول بعض المتفرجين منا ان عدم تعصب العرب لجنسهم كان ضارا بهم لانه ازال ملكهم ، وان الترك لو عملوا بهذه السياسة الاسلامية لكان شأنهم في ذلك كشأنهم ، وتقول ان هذا القول باطل وليس هذا المقام مما يسمع لبيان بطلانه بالحجة والبرهان ، وانما الغرض مما تقدم بيان ان العرب لا يكرهون سلطة الترك تعصبا لجنسهم وانما ينكرون منهم بعض الاخلاق والاعمال كما ينكر بعض أفرادهم وبعض جماعاتهم على بعض . هذا ما عليه مجموع الامة العربية لا جميع افرادها فاني لا أنكر انه قد جرى الى كثير من المعلمين الميل إلى التعصب الجنسي والاستقلال العربي وهو المقصود من بحثي هذا

ان الدولة التركية لم يكن لها في عصور قوتها نفوذ ولا سلطة ولا دواوين ولا محاكم في داخلية البلاد العربية ولا مدارس تركية فهي لم تتزج بالعرب ولم تتعمم معهم بلحمة العدل والعلم واللغة فيكون الترك والعرب امة واحدة ، ولم تسبهم بالقوة والجهروت والظلم العام ففسد بأسهم وتجهلهم امة ذليلة ، بل كانت الى ما قبل « التنظيمات الخيرية » التي وضعت في عهد السلطان عبد الحميد (رحمه الله تعالى) تكفي بإرسال بعض عمالها الى بعض البلاد الكيرة لاجل اخذ ما فرض على كل جهة من المال للدولة ، ولكن البلاد المصرية قد ذاقت من الظلم في عهد المماليك ما صارت تعد به عصر محمد علي باشا وعصر احفاده عصر نور واصلاح ، على ما كان فيه من ظلم وجور ، ومع هذا كله لم تتوجه نفوس المصريين الى طلب الاستقلال التام عن الترك الا في عهد الثورة العراقية ، ثم لما كانت عاقبة الثورة هي اختلال الاجانب للقطر المصري حدث للمصريين من التعلق بالدولة العلية ما هو معروف وقد أشرنا اليه آنفا

بعد « التنظيمات الخيرية » تغفلت عمال الحكومة من الترك في البلاد العربية فلم يكن الناس يستنكرون سلطتهم ، أو يستقلون وطأتهم ، ولا كانوا يرون أنفسهم أذلاء لخضوعهم لحاكم أجنبي عنهم بل كان السواد الاعظم وهم المسلمون يمدون التركي منهم لأنهم مسلم وهم قضا يفكرون في مسألة الجنسية ، وأما غير المسلمين فلم يكن عندهم فرق بين التركي المسلم والعربي المسلم فهم كالمسلمين كانوا لا يفكرون في غير الرابطة الدينية ثم صار المتعلمون منهم على الطريقة الأوروبية يدعون الى الرابطة الوطنية على ان أكثر اهل بلادنا لا يفهمون من معنى الوطن الا موضع الإقامة حتى ان كل بلد عندهم وطن وهذا هو المتبادر من المعنى اللغوي . ثم ان النصارى سبقوا في كثير من البلاد العربية الى التقرب الى حكام الترك بتعلم التركية حتى صار كتاب الدواوين كلهم أو جلهم منهم في أوائل العهد بالتنظيمات ثم قل عددهم فيها بعد ذلك نعم ان جهل أهالي البلاد للغة التركية وجهل الحكام من الترك للغة العربية كانا ولا يزالان من أسباب الجفاء وعدم الانس ، واشتهر الترك على رقة حاشيتهم وعلو آدبهم بالكبر والغفظة على ان كثيرا منهم كان يتكبر لظنه ان التكبر يكون أدعى

الى المهابة والاجلال ولكن لم يكن يشعر بهذا إلا بعض أفراد الامة وهم رجال الحكومة من أهل البلاد فلم يكن له تأثير في الامة يوجب سرعان الكراهة للجنس ، وإنما كان يعرف بين الناس وصف الحاكم من حيث هو كما يقال هذا الوالى أو هذا المتصرف عادل لا يأكل « الرشوة » وهذا الوالى أو المتصرف يأكل ويشرب ... وكثيرا ما كان الناس قبل هذه الايام يمدحون الترك كلهم لوجود حاكم عادل منهم وقتما كانوا يذمونهم كلهم لظلم الحاكم منهم على أن الظالمين كانوا بطبيعة الاستبداد أكثر من العاديين

وقد عرف بين الناس في الولايات العربية شيء آخر لا بد من ذكره وان كان مرارا لانا نبحث في هذه المسألة بحث الطيب الآسي وفي المثل العربي « من إكتم داءه قتله » ذلك الشيء هو أن الترك يبغضون العرب . ويتناقل الناس في كثير من البلاد العربية كلاما سمعوه من بعض حكام الترك صريحا في هذا ولا أحب أن أطيل في بيانه وأولاً أنه مشهور لا ذكرته ليعرف اخواننا الترك من ولاية الامور وأصحاب الصحف فيكونوا معنا على بصيرة فيما نطلبه من خير الامة بالاغتصام والوحدة يمكن أن يقال ان ماسمع من تصريح بعض الترك يبغض العرب هو من الجزئيات التي لا تنبغ أن تكون استقراء ناقصا فالحكم بها على الجنس كله حكم باطل ولا سيما اذا عرف لها سبب يوجد في صنف من افراد الجنس دون غيرهم . وقد علمت بعد البحث والتحري ان هذا الصنف الذي قد بدت البغضاء للعرب من افواه كثير من أفراده هو صنف المتفرنجيين والضعفاء في الدين من الذين يتقل عليهم مزاحمة العرب لهم في خدمة الحكومة وفي التوسل اليها بالتعلم في المدارس الرسمية فان بعض المتخرجين في هذه المدارس من أبناء العرب وبعض التلاميذ الذين لا يزالون فيها يذكرون من تعصب بعض المعلمين عليهم مالا محل لشرحه هنا . ومن المشهور عن كثير من الترك الصالحين وغير المتزاحمين مهمهم على أعمال الحكومة أنهم يحبون العرب حبا دينيا حتى ان منهم من يتبرك بالعربي لأنه عربي فالحقيقة المحصنة هي انه ليس بين الجنسين عداوة ولا بغضاء فنقول ان الاتحاد بينهما بتعذر أو تمسك وإنما هو التغيرات والتنافس في طلب المناصب والوظائف وفي

صفوف المدارس قد وصل مع الفلوالى التحاسد كما أشعر تالى ذلك في فائحة التبذة الأولى ومثل هذا التنافس والتحاسد يقيم بين المتزاحمين من أبناء الجنس الواحد فتلافيه سهل ان شاء الله

والخلاصة ان تاريخ العلاقة بين الترك والعرب لم يكن فيه شيء اكثر مما ذكرنا ولم يكن ذلك في الماضي مما يخطر على بال زعماء العرب السعي الى انفصالهم من الترك واستقلالهم بأنفسهم ولا ذكر هذا على لسان احد الا في عهد ولاية زعيم الحرية والاصلاح (مدحت باشا) على سورية ففي عهده شاع ان في البلاد حزبا كبيرا مؤلفا من وجهاء المسلمين والنصارى في بيروت والشام يسعي الى جعل القطر السوري مستقلا كالقطر المصري تحت سيادة الدولة العلية ويكون الخديو له مدحت باشا . وقيل ان بعض « الماسون » كانوا يسعون الى جعل الامير عبد القادر الجزائري هو الخديو لهذا القطر . وقد سمعت من والدي رحمه الله تعالى ان مدحت باشا على سعيه في اصلاح الدولة اعتقد ان اصلاح البلاد السورية وجعلها خيرا من البلاد المصرية لا يتأتى الا باستقلالها الاداري فكان يمهّد السبيل لذلك فشرع بالامر وسثم باشا متصرف لبنان فكاشف به الدولة فكان ذلك هو السبب في عزل مدحت من ولاية سورية . ولكن أخبرني بعض العارفين بدخائل السياسة في ذلك الوقت ان السلطان عبد الحميد هو الذي أوجد تلك الاشاعة في سورية ليتوسل بها الى اخراج مدحت من سورية لاجل الانتقام منه . ويقال ايضا ان لبعض الاجانب يدا في توجّه نفوس الناس في سورية الى هذه الفكرة . وقد حدثني بعض اصحابي الذين كانوا من عمال الحكومة في عهد مدحت باشا انه سأل عما يقال في هذه المسألة فقال له زعيم الاحرار ان هذه دسائس من الاجانب يريدون بها فصل سورية من الدولة ليستولوا عليها

مثل هذه الدسيسة لا يتغرب من سياسة « يلدز » التي كانت مبنية على المكايبة والمخادعة واخفاء الحقائق بالوان التمويه والتليس وهي التي لعبت بالثورة العراقية ذلك اللب المشوّم ومكنت للانكليز في ارض مصر ثم ارادت أن ترضي سائر الدول القوية بتمهيد السبيل لتمكينهم في سائر أرجاء الدولة في مقابلة مصر

فأعطت الالمانيين سكة حديد بغداد وقررت اعطاء الروسين مثلها على شواطئ البحر الاسود - وقد راجت تلك الدسيسة الحميدية على اهالي سورية فشاع بينهم ان مدحت باشا وهو المعروف بحب الاصلاح ما أراد انشاء دولة عربية الأ يصد بأسه من قدرة قومه على سياسة الملك واقامة العدل وتشييد دعائم المدنية بما تقتضيه حال مصر ، فكان هذا اول فكر في التغير من السلطة التركية سرى في بلاد عربية ، وقد نظمت فيه القصائد البليغة المؤثرة كالتصيدة السفينة الشهيرة لليازجي ولكنه فكر لم يلقه السواد الاعظم بالتسليم

ثم سكنت هذه الافكار بعد اخراج مدحت باشا من سورية عدة سنين حتى اذا ما اشتدت المظالم الحميدية في السنين الاخيرة وقويت فتنة اليمن وقتنه مكذونية عاد بعض الناس الى الحديث فيها بمصر وأوربا فكان المشتغلون بالسياسة من ابناء العرب على ثلاثة آراء: بعضهم يرى السعي في أوربا لاستقلال البلاد العربية كأصحاب جريدة النهضة العربية في باريس ولم يكن لهم تأثير لعدم انضمام احد من المسلمين اليهم ولا تهاهم بانهم يريدون الاستفاداة من السلطان عبد الحميد بالأيهام الذي كان يروج في سوق سياسته أو وسواسه

وبعضهم رأى انه يجب اتحاد المسلمين مع اليهود والنصارى على العمل ووضع له قانونا جعل فيه من الامتياز لليهود ما كان ضامنا به أن يبدلوا للمشروع الملائين من أموالهم ليعطى بعضها لعبد الحميد ورجاله ثمنا للبلاد التي يراد استقلالها وكان يعتقد أن إرضاء « يلدز » بالمال متيسر أو مضمون وقد أطلقني صاحب هذا المشروع أنا وبعض أصدقائي على قانونه فلم نواقفه على السعي له مع علمنا بما لليهود من اليد العاملة في كل انقلاب كبير في التاريخ ويؤيده ما حصل أخيرا من الانقلابات ...

والرأي الثالث هو ما عليه جمهور المشتغلين بالسياسة وهو انه يجب الاتحاد الدائم بين العرب والترک والمحافظة على كيان الدولة العلية بالسعي في اصلاحها وجعلها دولة دستورية ولاجله اسسنا جمعية الشورى العثمانية من جميع العناصر كما اشرنا الى ذلك من قبل . فهذا ملخص تاريخ هذه المسألة قبل الانقلاب الاخير فاذا جرى بعده؟